التجربة الأدونيسية
وثائق في تناصّ الحرام وحقيقة المكانة
(الجزء الثاني)

عادل عبد الله*

بعبارة أكثر وضوحاً، إذا أهملنا مؤلفات أدونيس النثرية التي يبدو فيها ناقداً أدبياً يعالج نصوصاً أدبية، ماذا يمكن أن نسميه في مؤلفاته الأخرى التي تفترض تناولاً فكرياً وتتخذ موضوعات من هذا النوع لها؟ «الثابت والمتحول»، «النص القرآني وآفاق الكتابة»، «الصوفية والسريالية» ... الخ، أكان أدونيس في هذه الموضوعات التي تفترض التناول الفكري، مفكراً حقاً، أم كان نوع حضوره فيها ومعالجته إياها يمثل شيئاً آخر لا يمت إلى المفكر بصلة؟

إذا أردت أن أضع مؤلفاً في مفهومي الزمان والمكان، أو في نقد مبدأ الهوية، أو في الأنطولوجيا الظاهرية، أو في شرح مقولات أرسطو، فإما أن أكون ناجحاً في نهاية البحث، قادراً على معالجة الموضوع فكرياً وبطريقة جديدة تضيف إلى تاريخ بحث هذا المفهوم شيئاً جديداً، فاستحق حينئذٍ تسمية مفكر دون فضل من أحد، وإما أن أفشل في أداء النوع الذي تستلزمه مثل هذه الموضوعات، وبمقدار يخرجها عن أن تكون كتابة في الفكر فاستحق حينئذٍ تسمية سواها، وهنا سيكون السؤال مباشراً.

أيمكن أن نسمي أدونيس في كتابه «الثابت والمتحول» أو في كتابه «النص القرآني وآفاق الكتابة» أو في كتابة «الصوفية والسريالية»، مفكراً؟ هذه التسمية التي تستدعيها العنونات، والموضوعات الفرعية، والتفاصيل، والعلاقات الداخلية بين هذه المفهومات المعالجة، فالثابت والمتحول عمل في الاتباع والإبداع العربي، من حيث البنية السياسية، والاجتماعية، والدينية، والشعرية، والاقتصادية، إنه عمل أركولوجي، حفر معرفي على طراز معالجات «فوكو»، ومحمد عابد الجابري، أيضاً، الأول في كل مؤلفاته، وأخص من الآخر كتابيه بنية العقل العربي ونقده، أقول إذا كنا نتمكن دون حرج أن نسمي أعمال «فوكو» الحفرية، أعمالاً فكرية، لا لمعرفتنا المسبقة بكونه مفكراً، بل لأننا وجدناها فكرية بضرورات إنتاجها ومرجعيتها وغاياتها، هل نستطيع أن نسمي «الثابت والمتحول»، عملاً فكرياً بذات الطريقة والأمان والدقة التي نسمي بها، ونسمي أعمال «فوكو» بهذه الصفة الفكرية بغض النظر عن مسألة الاتفاق على نتائجها المعرفية؟ أهو

عمل من أعمال الفكر حقاً، أم أنه موضوعات فكرية، معالجة كتابية من قبل أدونيس، لكن ليس من خلال كونه مفكراً، كما يستدعي السياق والموضوع ذلك، بل من خلال كونه ناقداً أدبياً، أي من خلال مرجعية معرفية اسمها النقد الأدبي حين يستلزم الأمر مرجعية معرفية اسمها الفكر أو العقل سبيلاً لاحتواء الموضوعات المطروحة بما تستحقه من نوع المعالجة؟ أقول النقد الأدبي، ولا أعني وحدة النقد والأدب، وحدة الملكتين الخلاقتين: ملكة التفكير وملكة الخيال جدلياً، بل أعني بالنقد الأدبي، هنا، الحياد المعرفي، منطقة الأعراف بين الفكر والأدب، بين ملكتي التفكير والتخيل، الأولى بمسؤوليتها عن إنتاج الأفكار – الأعمال الفلسفية، والثانية بمسؤوليتها عن إنتاج الشعر، والأدب، والفن. إذاً فهي المنطقة التي تعتاش، تستمد وجودها من وجود الملكتين، وتعمل في مكان محدد لا تستطيع مغادرته، إنه حيز النصوص الأدبية بكل ثراء هذه النصوص، تنوعها، وقدرتها على إنتاج نص مغاير من خلال لغة النص الأول كما يقول «فوكو»، أو من خلال تمثيلها النص الأدبي وإقامة العلاقة معه وفق مبادئ الاختيار، والحكم، والشرح، وأحسب أن في هذا الكلام مناسبة إلى عدم فهمه بشكل يمكن أن يسيء إلى مكانة الناقد الأدبي ولا إلى عمله المبدع.

نتوصل هنا إلى أن المنطقة الحيادية المفترضة التي لا يمكّنها ما لديها من الانتساب لا إلى الفكر الخالص – كنص – ولا إلى الشعر الخالص بحيث تبدو مستقلة مكتفية بذاتها رغم اخفاء مصدريها، أو قدراتها على حجب المصدرين وبما تبدو أنها قادرة على العمل وحدها، وبالطريقة الآتية:

سأقول أولاً إن هذه المنطقة هي منظومة أفكار محددة بديلة ومنسوخة عن الفكر ذاته، لكن بنوع من الفرق هو أن الفكر الذي لا حد له في إنتاج أفكاره وفي مقدار توغله في ذاته – لأنه حرية كاملة لا متناهية – لا يجد له ما يناظره أثناء عمله في هذه المنطقة، فهي محددة بأفكار مرجعية، أحكام قطعية نهائية، قناعات ثابتة غير مبرهنة ولا تملك قوة إقناعها، إنها لا تسمح لنفسها بالتوغل أبعد منها، أي بالعبور إلى منطقة التفكير الحقيقي حيث يتم انتقال الرأي ويتحول إلى إقناع، بعبارة أخرى، إن لهذه المنطقة مرجعياتها المتعالية الخاصة، مقولاتها، بديهاتها، وقائعها الأولية الخاصة بها والتي تسوغ لها بطبيعة عملها، أما نوع اللغة المستخدمة في هذه المنطقة من حيث علاقتها بالآخر وفارقها عن الجملة التي تنتجها ملكة التفكير، فهي أن الجملة في هذه المنطقة، هي جملة الرأي، حسب كانت، الجملة المشوبة بالذاتية والمعبرة عن عدم كفايتها موضوعياً، إنها الجملة المفتقرة إلى طاقتها المنطقية، رغم سعيها لذلك كونها تتوخى الحكم، التي تتمكن من إقناع الآخر برهانياً، بذات الإيمان الذاتي والقناعة التي يحظى بها كاتب تلك الجملة، بل إنني سأمضي إلى الافتراض بأن ثمة لغة خاصة موجودة فعلاً استطاع الناقد الأدبي خلقها بين النقد الأدبي كجنس أدبي وبين قراء الأدب أنفسهم، ثمة لعبة إبداعية تم الاتفاق على قواعد لعبها، بحيث لا يكتفي القارئ الأدبي بالاستجابة الذاتية العاطفية إلى نص الناقد الأدبي، بل إنه ليمضي إلى الدفاع عنه من خلال المنطقة / الذائقة النقد – أدبية التي لديه، المنطقة المنفعلة كاستجابة ورد فعل لحركة أولى أنتج الناقد الأدبي نصه في فضائها، النص الموجه الذي صدر عن منظومة معرفية شبيهة.

بقي أن أقول إن القسم الثالث من هذه الدراسة سيتعرض الى كتاب أدونيس «النص القرآني وآفاق الكتابة» في فصله المعنون : اللغة والحقيقة، بوصف هذا الفصل عينة تطبيقية لما تم الذهاب إليه من معالجة أدونيس للموضوعات الفكرية من وجهة نظر الناقد الأدبي.

اللغة والحقيقة
نموذج تطبيقي للفهم الأدونيسي للغة

كان لا بد من أن نستحضر في الذهن، وبإيحاء من العنوان نفسه، ذلك العدد المحدد القليل من الدراسات والأعمال الشبيهة التي تحمل العنوان نفسه، قريبة منه أو مجاورة، ذلك لأن اللغة، والحقيقة، هي من المفاهيم، الموضوعات المسورة الخاصة المقصورة على نخبة فكرية محددة مغامرة الخوض في تداعيات محتوياتها، سواء ببحث أحد طرفي هذه العلاقة – اللغة والحقيقة – أو ببحث العلاقة القائمة بين المفهومين وأثر كل منهما في الآخر.

سيكون لزاماً علينا هنا أن نستذكر مبحثي «هيدجر» الرائعين، حقيقة اللغة، المبحث العميق الذي ينتهي إلى النتيجة الرائعة التي تعرّف ماهية اللغة بأنها لغة الماهية بعد رحلة معرفية سرية لا نملك إلا قبولها مع «هيدجر» مثلما كان علينا أن نستذكر، أيضاً، مبحثه الآخر الجميل «ماهية الحقيقة» وتحولات مفهومها من «هيرقليطس» إلى «أفلاطون»، ثم مفهومه الخاص عنها، المفهوم الذي يعرفنا عليه بوصفه إنارة الوجود أو لا تحجبه، كان علينا أن نستذكر بحوث «فتنشتاين» الوضعية في اللغة ونظريته الكبيرة (*Language Game*) وأن نستحضر عمل «آير» الرصين (*Language, Truth & logic*) اللغة والحقيقة والمنطق ثم نستحضر في الوقت ذاته أعمال ومعالجات «ميرلوبونتي»، «وسسير»، و«فوكو»، و«راسل»، و«تارسكي» في تفريقه بين (*Language*) و (*Meta Language*) وما بعد أو وراء اللغة وعلاقة كل منهما بمفهوم الحقيقة ثم نستذكر قبل ذلك كلّه عبارات «كانط» التي استهل بها أحد فصول كتابه «نقد العقل الخالص» العبارات التي توجز قيمة الحقيقة كمبحث من حيث علاقتها بالفلاسفة، يقول «كانط» إن السؤال القديم، الذي كان يتوخى الناس بطرحه حشر المناطقة في الزاوية الضيقة ومن ثم إرغامهم إما على اللجوء إلى مغالطات تثير الشفقة أو إلى الإقرار بجهلهم ومن ثم بطلان كامل فنهم، هو ما هي الحقيقة؟

إذاً فقد كان علينا أن نضع ذلك كلّه أو سواه من الموضوعات التي تعالج الصلة بين المفهومين بصيغة سياسية أيديولوجية حاضراً في الذهن، ثم نفتح بصائرنا لاستقبال مبحث جديد عن اللغة والحقيقة من وجهة نظر شاعر عربي كبير له باعه الطويل في التنظير والكتابة.

لكن هل حدث شيء من هذا؟ والسؤال هنا بعد الفراغ من قراءة النص : هل مسّ أدونيس في معالجته لمفهوم اللغة والحقيقة أياً من الموضوعات التي سبق لأولئك المفكرين العظام ذكرها؟ هل ذكر بأحد منهم؟ هل تعرض لأحدهم؟ حاوره؟ اتفق معه؟ أو خالفه الرأي عندما تحدث عن الموضوع ذاته؟ هل استعادهم؟

تمثلهم؟ ثم هل كان قبل كل ذلك – مبحث أدونيس في اللغة والحقيقة – مبحثاً فكرياً جاداً يتناول مفهومي اللغة والحقيقة من وجهة نظر فكرية كما يفترض المفهومان مثل هذا السياق؟

أعتقد أن أحداً ما لا يمكن أن يقول بهذا الرأي أو يدعي حدوثه، حتى وإن كان هذا لأحد غير المعرّف أدونيس نفسه.

إذاً فقد عالج أدونيس، وهذا هو الذي أريد قوله، موضوع اللغة والحقيقة في إطار وصيغ غير فكرية، بل كان يسعى بإرادة منه واعية وغير واعية إلى الابتعاد ما استطاع عن هذا الميدان الفكري، رغم أنه الميدان الحقيقي الوحيد لمعالجة مفاهيم كهذه. أقول الميدان الحقيقي الوحيد مفترضاً نمط حضور أدونيس ونوعه المعرفي؛ أعني النوع الذي لم يعرف به أدونيس بوصفه لسانياً أو عالم نفس أو معنياً بعلم الاتصال.

أين تمت إذاً معالجة أدونيس لمفهومي اللغة والحقيقة أو العلاقة القائمة بينهما وكيف كانت هذه المعالجة وما نتائجها المعرفية؟

هذا ما سنتعرف عليه في المقبل من هذه الدراسة التي سأضطر خلالها إلى المضي مع فقرات أدونيس واحدة تلو أخرى سبيلاً لضمان الدقة والأمانة.

في الفقرتين الأولى والثانية من مقال أدونيس لم ترد وبأي صيغة من الصيغ كلمتا لغة وحقيقة، لم تتم الإحالة إليهما، بل ولم يكن الموضوع على علاقة ما بهما تستحق الذكر، فما حدث في الفقرات الأربع، المتقدمة كان بالصيغة التالية:

في الفقرة الأولى من المقال يفترض أدونيس محاوراً له يلمح إلى عدم قدرة أدونيس على كتابة ما يريده حقاً، ثم يفحم أدونيس بأسئلة ثلاثة مطروحة من طرف واحد مفادها :

«أن لا ثقافة بلا كتابة وما يكون الانسان الذي لا يقدر أن يفصح عن مكونات جسده وفكره؟»

في الفقرة الثانية يرد أدونيس على محاوره المفترض بالقول «إنه موجود وحاضر بقوة الكتابة وإنه متوحد معها».

في الفقرة الثالثة يدعو محاور أدونيس المفترض إلى الكتابة عن ذلك المكبوت في الفكر العربي، لأن عدم الكتابة عنه مشاركة في إبادة الثقافة واللغة – هنا ترد مفردة لغة لأول مرة – في هذا السياق الذي لا يقول شيئاً.

في الفقرة الرابعة يكرر صديق أدونيس سؤاله عن المكبوت العربي، مسألة اللغة العربية وعلاقتها بالعالم وأشيائه.

في الفقرة الخامسة نعثر ولأول مرة في المقال على ما يشير إلى علاقة جادة بين اللغة والحقيقة، غير أن المفارقة هي أن هذه العلاقة المطروحة مقدمة من قبل «مالارميه» وليس أدونيس – كما يرد ذلك في النص – يقول مالارميه في الفقرة الخامسة من مقال أدونيس «اللغة والحقيقة» متسائلا : «هل تستطيع اللغة أن تنقل حقيقة الشيء أو العالم؟ فيجيب مالارميه عن سؤاله: كلا، لأن اللغة لا تقدر أن تتجاوز السطح، والباقي يظل بعيداً يلفه الصمت، كأن الحقيقة إذاً كامنة خارج اللغة».

ماذا يمكن أن تخبرنا مثل هذه العبارات؟ ولماذا يصمت أدونيس عن أصلها «الكانطي» واضح المعالم؟ لماذا يتم تناول أدونيس لها وطرحها واستعادتها من فم «مالارميه» الشاعر وليس من أصلها وميدانها الفكري الحقيقي الذي وردت فيه بوصفها أحد تعاليم فلسفة «كانط» النقدية؟
ما هو الفرق جوهرياً بين العبارة التي قالها «كانط» وهي العلاقة الكبرى لفلسفته، بل هي عنوان مجمل فكره : «إن الفكر غير قادر على معرفة الأشياء في ذاتها وإن ما نستطيع معرفته هو الظاهر من الأشياء والعالم فقط» وبين العبارة التي نقلها أدونيس عن «مالارميه» إن اللغة غير قادرة على نقل حقيقة الشيء والعالم وإنها لا تقدر أن تتجاوز السطح، أي أنها تنقل الظاهر فقط. هنا يمكن القول، وهو قول يستخدم لإدانة هذا اللبس الحاصل في عدم رؤية الفرق وليس إلى إمكان تبريره، أقول يمكن القول إن ما يرد في جملة «كانط» هو عجز الفكر، وإن ما يرد في جملة «مالارميه» هو عجز اللغة، فما هو الفرق في المعنى العام للعبارتين، تحديداً؟ أو ليس الفكر هو الذي يستخدم اللغة لفهم الأشياء؟ أليست هي وسيلته التي يفكر ويعي بها نفسه والعالم أيضاً؟ ثم أليس هو معنى واحداً ان نقول - حسب مالارميه - إن اللغة لا تستطيع أن تنقل حقيقة الشيء والعالم؟ أو أن نقول حسب «كانط» إن الفكر غير قادر على معرفة الشيء والعالم. ببساطة متناهية تقدم لهذه العلاقة وتحاول تفسيرها نقول: إن مهمة اللغة هي نقل المعروف وما لا تتم معرفته لا ينقل عبر اللغة، الأمر الذي يعني أن الفكر معرفة الشيء، والعالم في الفكر سابقة على عملية نقله لغوياً لأن مهمة اللغة حسب «فنجنشتاين» و «راسل» هي نقل الوقائع. لماذا حصل اللبس إذاً، وما الذي استدعى حدوثه وما هي النتيجة التي يؤشرها مثل هذا الحدوث؟
إنها فرضية الناقد الأدبي ذاتها، منطقة عمله، وآليته الفكرية تلك التي سوغت لأدونيس استلام العلاقة من «مالارميه» لا من «كانط»، الأول، بدلالته الشعرية والثاني بدلالته الفكرية، ثم فهم هذه الرؤيا من خلالهما، من خلال اللغة وأنماط ثقافتهما الشعرية النقدية، أي من خلال البديل للفكر هنا وليس من خلال الفكر ذاته، كما أشرت إلى ذلك.
في الفقرة السادسة من المقال يطرح أدونيس، دونما أي تعليق أو تقديم منه، فهم النقاد العرب لموضوع اللغة وفق تناول مدرستي الكوفة والبصرة لها، ماراً، دون تعليق، أيضاً، بالعبارة الوحيدة التي تفتح المجال واسعاً للحوار معه، أعني عبارة جابر بن حيان في تعريفه للغة بكونها ليست وليدة الاتفاق وليس هناك نظام يفسرها وإنما هي انبثاق من النفس.
في الفقرة السابعة يتساءل أدونيس، عن سبب انتقال المقال من الكلام عن المكبوت إلى الكلام عن الكلام.
وفي الفقرة الثامنة يحاول أدونيس ليّ موضوعه حول اللغة والحقيقة إلى موضوعه الأثير في إدانة المؤسسات والمجتمع العربي، ثم الإشارة إلى عدم قدرة اللغة على التعبير عن الحضور الحي، إنما تعبر هي عن وهم وجودنا بعبارة ثانية يقول أدونيس : «لم يعد لكلماتنا معنى هكذا نتكلم ونكتب لكي نضرب الكلمة بالكلمة ولكي نكفنها أو لكي لا نقول شيئاً» ثم نكتشف في الفقرة ذاتها أن هذا الكلام الذي يمس اللغة حقاً هو كلام للناقد الإنجليزي «جورج ستانير» وليس لأدونيس، كما يشير، ولأن لهذه العبارات في فهمنا أهمية كبيرة، فإني سأعود إليها لاحقاً.

في الفقرة التاسعة يوجز أدونيس في نقاط أربع مقارنة بين اللغة العربية واللغات الأوروبية، من حيث قدم كل منهما في لغة البحث عن الحقيقة مشيراً في الفقرة التالية إلى هذه النتيجة (المغرضة) المطروحة في شكل سؤال مفاده «إذا كانت اللغة في أوروبا قد شاخت في مستوى بحثها عن الحقيقة، وهي بالقياس إلى العربية طفلة، فماذا يمكن أن نقول عن لغتنا التي يرقى البحث فيها إلى حوالي 18 قرناً». ينتقل بعدها أدونيس إلى الإشارة إلى الكشف العلمي التقني والحضاري والمعرفي الذي «كان أكثر جذرية في اللغات الأوروبية منه في اللغة العربية، الأمر الذي يوفر لها إمكانيات مقاومة الشيخوخة، بخلاف اللغة العربية التي تعاني إبداعياً حالة من الركود منذ حوالي ألف سنة». ثم يخلص أدونيس إلى النتيجة القائلة إن مشكلتنا مع الحضارة هي «أننا لا نريد الاعتراف بشيخوخة حضارتنا العربية بل إننا نجعل من الشيخوخة نظاماً نؤسس عليه».

في الفقرتين العاشرة والحادية عشرة، يقرر أدونيس أننا إبداعياً بلا لغة، وأننا لا نكتب بل نرسم ألفاظاً.

في الفقرة الأخيرة يحيّي أدونيس سلالة الشعراء الذين انحدر منهم، مباركاً إصرارهم على الكتابة وانتماءه إليهم، ثم بأداء موغل في الذاتية يحول كل موضوعة «اللغة والحقيقة» إلى أداء شعري يقول أدونيس فيه :

«أتعلّمُ أن الكتابة بُعد، أن الكتابة الأكثر بعداً هي الأكثر قرباً، أتعلم أن الوقت جرس، وأنه لا يرن رنينه الموقظ المعبر على النحو الأكثر عمقاً إلا في الشعر». هكذا انتهت مقالة أدونيس؛ دراسته عن اللغة والحقيقة بهذه الطريقة دون أن تقول لنا، تعرض أو تتعرض، تضيف أو تحاور أيا من المفهومين وبأي عمق يذكر أو بأي من الميادين الخصبة الصالحة لأن يثار الموضوع خلالها، الأمر الذي يمنحنا مشروعية مناقشة هذا المقال بطريقة أكثر جدية تكشف عن الفضاء المعرفي الذي أنتج فيه، وعبر التسلسل الآتي:

1- لم يكن العنوان الذي وضعه أدونيس لمقالته بداية ومستهلاً على صلة ورابط داخلي يخص محتوى هذه المقالة حقاً، أعني أن المكان المعرفي، العلة والبداية، التي شرع أدونيس منها لكتابه مقاله، لم تكن على وجه الدقة مشدودة إلى معرفة ماهية اللغة والحقيقة، ولم تكن هذه الكتابة – كتابة أدونيس لمقاله، منطلقة بغاية أن يتعرف الكاتب ويعرّف لنا طبيعة اللغة والحقيقة، الأمر الذي يعني أن أدونيس لم يكن مشغولاً ومهتماً ومنصرفاً بدوافع نفسية معرفية حقيقية لمعرفة ما هي اللغة والحقيقة؟ إنه لم يسع إلى كشف هذه العلاقة أو إضاءتها، ذلك لأن المقالة لم تمض بهدي عنوانها، العنوان الذي كان إهماله متعمداً مثلما لم يكن راسخاً، ولم يكن علة كتابة المقال، لأنه لم يكن يمثل أي حضور داخل البنية الحقيقية للمقال، ما يدعو إلى القول دون حرج بإمكانية أن يكون أدونيس قد وضع هذا العنوان بعد الفراغ من كتابة مقاله بفقراته المنوعة الاثنتي عشرة، المقال الذي لا يعدو كونه تداعيات واستذكارات يوجهها الرأي الذاتي عند حدود الثقافة الأدبية لهذه الموضوعات وحسب.

2- لم تكن معالجة أدونيس لمفهومي اللغة والحقيقة معالجة فكرية فلسفية تشير، أو تذكّر، تحيل أو تستمد من أي من طروحات «أفلاطون، لايبنتز، هيدجر، ميرلوبونتي، فنجنشتاين، تارسكي، رسل، إير، فوكو،

دريدا، باعتبار كتابة هذا الجمع المفكر، على سبيل المثال، لموضوعات من النوع نفسه، مثلما لم تكن معالجته للمفهومين في حيز لساني على غرار معالجات «سوسير»، «جومسكي»، «ياكوبسن»، لم تكن كذلك مذكرة بأي من المعالجات النفسية للمفهومين «فرويد»، «لاكان»، مثلما لم يكن حيز المعالجة سياسياً، إعلامياً، على طريقة «هابرماز»، أو «أدورنو». فما كان واقع المعالجة إذاً إن لم يكن منتمياً إلى كل هذه الميادين والحقول المعرفية المتنوعة؟

إن الإجابة عن سؤال كهذا لا يمكن أن تكون سوى أن معالجة أدونيس لهذين المفهومين كانت في حيز (الناقد الأدبي) في بنيته العقلية،« وفي طريقة رؤيته إلى الأشياء والعالم والمفاهيم والمعرفة، هذه البنية التي تمس الأشياء من السطح دون قدرة على النفاذ والدخول في حوار حقيقي معها، لأنها، كما أشرت، تفتقر إلى العمق الذي يوفره الفكر لها، ولأنها مقطوعة عنه وتعمل وفق منظومة معرفية خاصة بها. هنا يمكن الإضافة أن الناقد الأدبي يغادر، هنا، منطقة عمله التي هي حيز النصوص الأدبية الرهين عمله بها لينظر، يتطلع، ومن خلال هذا الوسط المغلق، إلى العالم والمفاهيم ذات الطبيعة الغربية عنه ليكتب عن رؤياه عنه وعنها.

3- يمكن القول، ودون تجاوز أو تعسف، دون افتراء أو تحامل، إنما يمكن القول استناداً إلى واقع الحال وحقيقة القراءة التي سيمنحها لنا مقال أدونيس عن اللغة والحقيقة، هو أن أدونيس الشاعر الذي يعرف هو قبل غيره المكانة الكبيرة التي يحتلها، لم يطلع أو يتعرف، على الحد الكافي أو العميق من كل تلك الأعمال المعرفية الرصينة، خصوصاً الفكري منها، بحيث تتأهل وتدعي مقالته حقيقة الانتساب لها، لأن مثل هذا التعرف كفيل بتغيير نظرة المتعرف إلى مفهوم اللغة والحقيقة، النظرة التي لا بد من أن تحدث تأثيرها المعرفي البالغ في ذات المتعرف متجلياً ذلك في عدم نسيان هذه الأعمال الكبيرة، ودوام النظر إليها بهيبة ووقار ثم الامتناع، من جهة أخرى، عن المغامرة بكتابة أعمال تتناول ذات المفهومين دون رؤية جديدة مغايرة مجاورة تضيف وبأي مقدار شيئاً ما تمت القراءة والتعرف عليه.

4 - في مقال أدونيس - اللغة والحقيقة - لم يرد التعرض إلى هذين المفهومين بشكل جاد إلا عبر ثلاث إشارات لم تكن أي منها منتمية إلى أدونيس صاحب المقال، كما يشير هو إلى أصحابها .

فالعبارة الأولى التي تحدثت عن عدم قدرة اللغة على نقل حقيقة الأشياء والعالم كانت لـ«مالارميه»، وكانت العبارة المهمة الثانية الجديرة بالمناقشة عن كون اللغة ليست وليدة الاتفاق مقولة من قبل جابر بن حيان، أما العبارة المهمة الثالثة التي وعدت بالحديث عنها فهي لـ«جورج ستاينر» إذ يقول «لم يعد لعباراتنا معنى، هكذا نتكلم أو نكتب لكي نضرب الكلمة بالكلمة أو لكي نكفنها أو لكي لا نقول شيئاً». فماذا يعني ذلك؟ أعني : ماذا يعني أن ترد في مقال لأدونيس، يتحدث عن اللغة والحقيقة، ثلاث عبارات فريدة تتحدث بجدية عن علاقة اللغة أو الحقيقة، وأن تلتقي هذه العبارات الثلاث في كونها لا تنتمي إلى قول أدونيس الخاص وليست من بنات أفكاره، بل هي على التوالي لـ«مالارميه»، وجابر بن حيان، و«ستاينر»؟ أحيل تفسير هذه المفارقة إلى القارئ الكريم وأدع التعليق عليها من شأنه.

5- إن الناقد الإنجليزي «جورج ستاينر» الذي استعاد أدونيس عبارته واستخدمها في غير الوسط والقصد الذي أراده «ستاينر» لها، والقائلة بطريقة غير نصية في طريقة اقتباسها «لم يعد لكلمتنا معنى، هكذا نتكلم أو نكتب لكي نضرب الكلمة بالكلمة أو لكي نكفنها أو لكي لا نقول شيئاً».
أقول إن هذه العبارات تصلح وتناسب بشكل مقبول لغة الناقد الأدبي حين يتجاوز الحيز النصوصي (النقد الأدبي) ويتطلع إلى النظر إلى العالم، ومن ثم يحاول فهم هذا العالم، والأشياء، والمفاهيم بأدوات ولغة وفكر الناقد الأدبي ذاته، ذلك لأن مثل هذه النظرة (النقد – أدبية) إلى اللغة والفكر، والتي تنطلق من ذهنية خاصة، ليست نظرة شعرية خالصة تؤول موضوعات العالم الحسية ذهنياً من أجل إنتاج قصيدة هي وسيلتها لفهم العالم مثلما ليست هي النظرة الفكرية العميقة التي تسعى إلى فهم العالم عقلياً، بل هي اللغة الوسيطة التي لا تمتلك لا تأويلية الشعر ولا برهانية الفكر في سعيها لإدراك العالم.
إنها لغة تصفية المفاهيم الكبرى، حلّها بالطرق الأقرب للفهم، إدراكها بأول مناسبة تسمح بالتعرف عليها، إنها لغة قبول الأشياء وعدم الخوض في مسألة فحصها.
ولعلنا نجد في مقال أدونيس هذا تمثيلاً جيداً لمسألة حل المسائل الكبرى، والمفاهيم، والحقائق بهذه الطريقة، بل لعلنا نجد خير تمثيل لها في عبارات أدونيس الموغلة في الذاتية التي يختتم بها هذا المقال كقوله آنف الذكر «أتعلم أن الوقت جرس لا يرن رنينه الموقظ..» أو قوله «اللغة هي وطني في هذا المكان العربي الإسلامي، هي وطني مفتوحاً على الجهات كلها وعلى الآفاق جمعاء) أو قوله في دراسة أخرى له – مستقبل الشعر وشعر المستقبل» (محاجا) «هيغل» دون أية حصانة معرفية أو دليل عقلي، يقول أدونيس «تعرفون قول هيغل إن الفن أصبح مسألة تنتمي إلى الماضي يطيب لي أن أقول إنه ينتمي إلى المستقبل بل أن يذهب أبعد من ذلك فأقول إن المستقبل هو الذي ينتمي إلى الفن».
كأن عبارة «هيغل» قد قيلت بنفس طريقة قول أدونيس، أو كأنها لم تكن النهاية المنطقية التي يقتضيها مذهب «هيغل» الجدلي والتي تنتمي لمجمل بنائه الروحي الهندسي القائل، عند هذا الحد، بضرورة انسحاب الروح من الغلاف الحسي الذي كان يغلفها سبيلاً لانتقالها إلى لحظة أخرى هي لحظة الدين ثم الفلسفة.
6 – وهي ملاحظتي الأخيرة التي أدعو بها، من تعنيه مثل هذه الدعوة،س إلى دراسة كتابات أدونيس النثرية بدءاً بالثابت والمتحول وانتهاء بالنص القرآني وآفاق الكتابة، دراستها وفق النظرة التي تحدثت بها وعنها، نظرة الناقد الأدبي إلى العالم، وما يمكن أن يكون عليه النص المنتج وفق هذه النظرة وسيجد دون ريب أن معظم مؤلفات أدونيس النثرية المهمة مكتوبة تحت رعاية بنية وتركيب هذا النوع المعرف النقدي، نظرة الناقد الأدبي لموضوعات الفكر.

تحولات العاشق بين أدونيس والنفري

انتحال النفري (كشف لعادل عبدالله)*

في العام 1978 نشر الشاعر العراقي عادل عبدالله في مجلة «الطليعة الأدبية» (العدد 11) مقالاً أعادت نشره صحيفة «الوطن» واستعاده الشاعر التونسي منصف الوهايبي في أطروحته الجامعية التي سنعود إليها، حمل المقال عنوان : من كتب «تحولات العاشق» أدونيس أم النفري؟. وإذا كنا نتفق مع منصف الوهايبي في القول إن كاتب المقالة لا يقدم تذكيراً بمشاكل النص أو بهذا النمط من التعامل مع نص الآخر، فإن من الواضح أن المقال يثبت لأول مرة عبارات ومقاطع وافرة يأخذها أدونيس حرفياً من النفري، كان الكلام سائداً عنها في أكثر من وسط، ووحده هذا الشاعر العراقي الشاب تجشم عناء نشرها والتساؤل عن شرعية سلوك كهذا وعما إذا كانت شهرة أدونيس وحضوره في الثقافة العربية يبرران له ذلك العمل. هذه هي المقاطع نقدمها في جدولين متوازيين:

* عن كتاب «أدونيس منتحلا» للشاعر كاظم جهاد، الكتاب الذي صدر عن (مكتبة مدبولي) – القاهرة، وشكّلت هذه المقالة مادة فصله الأول .

نص النفّري	نص أدونيس
1- ولتحدق بك النجوم الثابتة وسيري، تحت السحاب، واطلعي على قعور المياه ولا تطلعي في المشرق وقفي للظل... فأنت وجهي الطالع من كل وجه... ولا تنامي ولا تستيقظي حتى آتيك. – مخاطبة وبشارة وإيذان الوقت –	1- زحزحي نجومي الثابتة، واستلقي تحت سحابي وفوقه – في أغوار الينابيع وذرى الجبال – عالية، عالية، عالية، عالية صيري وجهي الطالع من كل وجه.. شمساً لا تطلع من الشرق، ولا تغيب في الغرب ولا تستيقظي ولا تنامي. – تحولات العاشق –
2- وقال يا نور، انقبض وانبسط وانطو وانتشر واختف واظهر، ورأيت حقيقة، لا أنقبض وحقيقة لا أقبض، وحقيقة يا نور انقبض – موقف نور –	2- وقلت أيها الجسد، انقبض وانبسط واظهر واختف، فانقبض وانبسط وظهر واختفى. – تحولات العاشق ص527 –
3- ووقف في الظل، وقال لي: تعرفني ولا أعرفك، فرأيته كلّه يتعلق بثوبي ولا يتعلق بي – وقال هذه عبادتي – ومال ثوبي قال لي : من أنا؟ فكسفت الشمسُ القمر وسقطت النجوم وخمدت الانوار	3- ورأيتُ ثوبي يميل عني والظلام يغشاني طلع مني العالم صارخاً كالحربة أهبط عميقاً في الظلمة ووقعت في الظلمة والتقيت بك ورأيت نفسي وقلت سأبقى في الظلمة ولن أخرج.

وغشيت الظلمةُ كلّ شيء سواه – ولم ترَ عيني ولم تسمع أذني، وبطل حسي، ونطق كلّ شيء، فقال الله أكبر، وجاء في كلّ شيء وفي يديه حربة، فقال لي: اهرب فقلت، إلى أين؟ فقال، قع في الظلمة، فوقعت في الظلمة فأبصرت نفسي، فقال لي لا تبصر غيرك أبداً، ولا تخرج من الظلمة أبداً. – موقف من أنت ومن أنا –	– تحولات العاشق –
4 – وإذا سميتك فلا تتسمّ – موقف اللغة –	4 – قلنا لا تسمّنا لمن يسمي – تحولات العاشق–
5– وأجتمع علي بأقاصي.. القلوب لا تهجم علي – موقف الموعظة – موقف قلوب العارفين –	5– وأهجم عليك بقلبي... أجمع أقاصي همومي – تحولات العاشق –
6 – وشجر الحروف الأسماء، الحرف يسري – موقف التذكرة –	6– كان اسمها يسير صامتاً في غابة الحروف
7– اطلعي أيتها الشمس المضيئة، فقد سلخت الليل وترين نوري كيف يزهر .. انفسحي يا محصورة فقد اطلق أسرك.. وأزف ميقات ظهوري وتنزل البركة وتنبت شجرة الغنى في الأرض. – مخاطبة وبشارة إيذان الوقت –	7– تقوم تنفسح الحدود المحصورة ينطلق الأسرُ الشمس التي أوقظناها تنبسط على كل شيء ونرى نورها يزهر.. وتقول نبتت شجرة الروح في الأرض – تحولات العاشق –
8– دخلت معه إلى قبره فضاق به... ارفع الحجاب بيني وبينك – موقف الأعمال –	8– وسأنزل معك إلى القبر.. بيني وبينك حجاب ولن تريني – تحولات العاشق –
9– أفل الليل وطلع وجه السحر وقام الفجر على الساق، فاستيقظي أيتها النائمة – موقف وأحل المنطقة –	9– النهار يعلن الليل استيقظي – تحولات العاشق –
10– أن كل مؤاك القرب فرشته لك – موقف القرب –	10– افرشه لك غباراً وقبراً. – تحولات العاشق –

لعنة النفّري

تقديم :

ها أنا الآن في لحظة المواجهة العصيبة – لحظة إقامة الدليل على حقيقة انتساب موضوع مغيب لصاحبه مع الأخذ بالاعتبار بأن هذا الموضوع قد جرى إخفاء ملامحه بمهارة فائقة قد تفوق أحياناً مهارة صنعه الأولى.

إذاً، فأنا الآن إزاء المهمة التي قد يعجز الآخرون عن إقامة الدليل على صحة الحسم فيها، بسبب عدم امتلاكهم ومشاركتهم في طبع الوشم، والعلامة الفارقة على الموضوع الذي أتنازع الآن على حقيقة انتسابه لي، غير أنها غشاوة مؤقتة، حركة سرعان ما سيبصر الناظرون بعدها حقيقة الحبال والعصي في حركة هذه الأفاعي ورقصها. بعبارة أخرى موجزة، يمكن القول إنه إذا كانت الصعوبة في إمكان تعرف امرأة ما على طفل ضائع بعد سنين طويلة من ضياعه، قائمة ومفترضة حد امكان القول بإنكار نسبته لأصله رغم صدقها، فإن امرأة واحدة في الكون كلّه، هي أمه، ستتمكن من التعرف عليه، لا من خلال العلامات السرية التي علمته بها فحسب، بل من خلال وسائل إخفاء تلك العلامات أولاً.

مقدمة ثانية :

بعد صدور كتابي الأخير «أدونيس .. الرماد العقيم لطائر الفينيق»، وهو كما يشير عنوانه الفرعي، قراءة في تجربته في التنظير والكتابة الشعرية، عزمت وبمشورة من بعض المبدعين، على التوقف عن مزيد من الإعلان عن نوع هذه (العلاقة) المعرفية التي تجمعني بأدونيس من طرف واحد، بكل ما يمكن أن تعنيه مفردة علاقة هنا – من متابعة معرفية نقدية وإبداعية، أيضاً، وهو الوضع النفسي والموقف المعرفي الذي سبق كل ما كتبته عن أدونيس وظلّ مرافقاً لنفسي حاضراً فيها، ربما لأنني مدين له بالفضل، حتى بعد نشر تلك المقالات ودون أن يستطيع النجاح الذي حظيت به احتواء مثل هذا الشعور أو التغاضي عن وجوده.

لكن لمصلحة من يكون الجنوح إلى إخفاء مثل هذه الموضوعات أولى؟

من هو المستفيد من فعل التستر هذا؟ وما هي الطبيعة المعرفية التي تنطوي عليها مثل هذه الفائدة؟ ثم ما الغرض من إخفائها ولم تصبح مثل هذه الفائدة ممكنة؟

أحسب أن هناك حقاً من يقول برأي الإخفاء هذا، بل إن هناك من يتجاوز موقف الدعوة هذه ليعلن عن ضرورة منع مثل هذه الخروقات الثقافية التي تحاول النيل والتطاول على من جرى الاجماع على عصمته والتسليم بتفوق نوعه بدهياً. ولأن هؤلاء المثقفين لا يستطيعون الإدلاء بمثل هذا القول بسريرة معرفية بيضاء، أي دون أن يكون أمر الترجيح هذا مسبوقاً بإخفاء قطعة معدنية أسفل الكفة التي يراهنون على ثقلها، ولأنهم إما من فئة المريدين الذين عصبوا عيونهم ثقة بالدليل فعز عليهم في حال كهذه رؤية التيه

الذي قادهم إليه، أو لأنهم من صنف أولئك النقاد الذين تلقوا جرعة الكتابة الأولى من لبأ مجلته فوضعوا نصهم النقدي رهين منجز أدونيس وتابعه الذي لا يستطيع الظهور لحظة واحدة بذاته ولذاته، لذا فإن مهمته المعرفية ووجوده الإنساني مكرس ومشغول بوضع النياشين والأوسمة على صدر نص أدونيس عقب كل مأثرة فكرية أو شعرية أعلن عن بلوغها، أقول لأن هؤلاء المنتفعين من فعل السكوت علي، هم من الفصيلتين هاتين لا غير، فإن أمر الإخفاء سيمثل بسكوته عن الحقيقة التي ينطوي عليها دعوة لمزيد من أعمال وهم الثقافة وزيفها، بل وتكريسها لنوع هذا الفعل ذاته، ذلك لأن الإعلان عن مثل هذا النوع من قراءة تجارب الآخرين الكبار، وهذا الرأي مستمد من واقع تجربة العلاقة التي تحدثت عنها - هو الحالة المعرفية الصحيحة التي يبنى عليها كل واقع ثقافي حقيقي متماسك قائم على مراجعة وفحص العناصر مجهولة الهوية في بنيته ثم نبذ وحداته التي لا تستطيع الدفاع عن أسباب حضورها وضرورات وجودها.

هكذا وانطلاقاً من مبدأ مقاومة ثقافة الوهم، وجدت المقالة التي نشرتها عام 1978 عن علاقة الانتحال التي حدثت بين أدونيس والنفري صداها الواسع العريض حين أعيد نشرها في أماكن عدة، لتصبح بعد ذلك حجر الزاوية في الأطروحة التي تقدم بها الشاعر التونسي المنصف الوهايبي لنيل شهادة الدكتوراة، فكان له ذلك، ثم لتؤلف من بعد الأساس النوعي والفصل الأول لموضوع كتاب الشاعر كاظم جهاد «أدونيس منتحلا» . هكذا، أيضاً، وانطلاقاً من مبدأ الإعلان ذاته، تخطت دراستي في «مجلة الأقلام» حدود القناعات النقدية والرضى المعرفي الذي قوبلت به التجربة الأدونيسية في التصوف لتؤشر على أبعاد خطأ هذه التجربة، وفي موضع القلب منها أي في المساحة العظيمة التي تحتلها (عبارة النفري) في الفضاء الإبداعي لأدونيس، وكان أن حظيت هذه المحاولة بمباركة نخبة عراقية مبدعة : محمد مبارك، عبد الرحمن طهمازي، خالد علي مصطفى، حسب الشيخ جعفر، عبد الخالق الركابي، عبد الزهرة زكي وآخرون، أقرت لي بصحة فرضية (إخفاق فهم أدونيس لعبارة النفري) ثم قبول الفهم المغاير البديل الذي قدمته لها .

هنا ينبغي الرجوع إلى ما سبق التنويه له عن رغبة صادقة بالكف عن علاقتي بأدونيس معرفياً، هذه العلاقة التي قطعت العهد على نفسي بعدم المضي فيها بعد صدور كتابي عنه، وهو الأمر الذي تحقق على المستويين المعرفي والنفسي فعلاً، وتمت تحت وطأة ظرفه إغلاق بابي دون الجهة التي يقيم فيها أدونيس، وكامل الطبقة المعرفية التي تنتمي لثقافته وفنه، مريدين وحاشية .

غير أن طرقاً مفاجئاً يضرب الباب بعنف هذه المرة، يدا حميمة تشبه يدي، دون فارق يذكر غير ذلك الذي جرى تعديله وإضافته عليها، تطرق الباب برغبة ملحة وبشكل لا يمكن تفادي ضرورة فتحه لها . إذاً فهي الدعوة مرة أخرى لنزع العصابة عن الفم الصامت من أجل الصراخ مجدداً، بعبارة موجزة مباشرة تقال وهي مشوبة بالحيرة، والتردد، إنها كف أدونيس هذه المرة، السيد الذي كان أن تعلمت منه ذات يوم بعض صنعتي، تعبث الآن ببعض ما صنّعت لنفسي لتنتهي بعد إعادة صياغة لشكله إلى نسبتها إليها .

وأحسب أنها لحظة العذر للحنث بموثق اليمين، أي أنها البرهة التي أهب لنفسي خلالها كامل الحق

لخيانة العهد الذي قطعته لها بالكف عن علاقتي بالشاعر المفكر أدونيس، أعني أنها اللحظة التي سأضع فيها قصيدتي «تجليات أبي العلاء» المكتوبة عام 1983 والمنشورة في «مجلة الأقلام» العام 1985، كمصدر قاع وأساس إبداعي تستمد منه قصيدة أدونيس «احتفاء بالمعري» المنشورة ضمن مجموعته الشعرية «احتفاء بالأشياء الغامضة الواضحة» مفرداتها الشعرية على مستوى اللفظ والتشكيل والبنية الشعرية كما ستعلن ذلك أوراق الثبوت والأدلة .

أدونيس، تناص الحرام وفصام المخيلة

كان في النية أن تصدر هذه المقالة مسبوقة بمقدمتين موجزتين، تتحدث إحداهما عن معنى الانتحال، غايته ودوافعه، من حيث كونه فعلاً نفسياً أخلاقياً في مقامه الأول، أما الأخرى فستقتصر بحديثها مدافعة ومبررة القصد النفسي والمعرفي من تخصيص جهدي النقدي، في الآونة الأخيرة، لكتابة مقالات ودراسات تتعلّق بموضوعة واحدة هي أعمال أدونيس ومكانته معرفياً وإبداعياً. غير أن القيمة الأخلاقية الخاصة التي تنطوي عليها بنية هذه المقالة مضافاً إليها النوع المعرفي الذي تنتمي له حالاً، بوصفهما سببين كافيين بذاتهما، دون اللجوء إلى تلك المقدمات الأسلوبية المبررة، أعني لما كانت مسألة التقديم إلى موضوعة خاصة كالانتحال لا تستمد قيمتها وأهميتها إلاّ من خلال صحة القرائن والوثائق التي تدل على حدوث فعل الانتحال واللجوء إليها بشكل مباشر أقرب إلى روح الحدث ورغبة القارئ.

ومن جانب آخر، ولما كان فعل الانتحال منطوياً على قيمة أخلاقية لا يمكن إهمال دورها، وكانت الأخلاق في جوهرها قيماً تفترض الآخر وتتجه إليه، أصبحت الإحالة إلى القارئ من أجل تفويضه حق البث في شرعية الادعاء ومدى صحته مسألة تستمد ضروراتها من بنية الحدث ونوعه المعرفي الذي لا يبلغ كماله إلاّ بين قضاء الآخر، قارئ النصين والمحتكم إليه بدعوى انتساب أحدهما إلى الآخر، ولأنني أنا، كاتب هذا المقال، من يتقدم الآن بشكوى انتحال نصه، سيكون لزاماً عليّ تقديم وثائق هذا الادعاء معززة بالشهود والأدلة عبر الصياغة الآتية:

1- كتبت قصيدتي «تجليات أبي العلاء» أوائل العام 1983 عندما كنت يومها مقاتلاً في الخطوط الأمامية لجبهات القتال، وقد تم إرسالها بالبريد إلى مجلة «الآداب» لغرض نشرها، وبعد ترقب ممل ومتابعة مريرة دامت أكثر من عام لما يصل أحياناً من أعداد المجلة، تكوّن لدي ما يشبه اليقين بأن القصيدة لم تصل إلى هيئة تحرير المجلة، أو أن أمراً ما حال دون نشرها، الواقع الذي أدى بي إلى تقديمها إلى مجلة «الأقلام» لغرض نشرها، حيث ظهرت القصيدة على صفحاتها في العدد السادس في حزيران العام 1985. وقد توخيت بذكر واقعة إرسالها إلى مجلة «الآداب» تبرير طول المدة بين زمن كتابتها وظهورها منشورة وهي المسألة التي تؤكدها الملاحظة الأخيرة الواردة في الصفحة (148) من مجموعتي الشعرية الصادرة عن دار الشؤون الثقافية «مؤونة الرحيل إلى الفراغ» حيث يرد «كتبت قصائد هذه المجموعة بين عامي (1979 - 1984).

2- لم يُشر أدونيس إلى زمن كتابة قصيدته «احتفاءً بالمعري»، وهي القصيدة التي تحمل المساحة الكبرى

من وزر فعل الانتحال، مثلما لم يرد عنه ما ينوه إلى زمن نشرها في مجلة أو صحيفة قبل ظهورها بين قصائد مجموعته الشعرية «احتفاء بالأشياء الغامضة الواضحة» وهي ملاحظة تصح على جميع قصائد المجموعة. أما الملاحظة الوحيدة التي وردت بهذا الصدد فهي تلك التي أعقبت نهاية قصيدة أدونيس «احتفاء المعري» حيث يرد «ظهر بالفرنسية كتاب *RETS D'ETERNITE* وهو مختارات من شعر المعري نقلها إلى الفرنسية أدونيس وأن وادمينكوفسكي، وصدر عن دار فايار في سلسلة الفضاء الداخلي الذي يشرف عليه المفكر الفرنسي روجيه مونييه، باريس 1998» كما هو مثبت.

3- لم اطلع من قبل على أي من قصائد مجموعة أدونيس هذه، ولم يتسن لي قبل هذه المناسبة قراءتها، علماً أنه قد سبق لي الاطلاع على مجموعته الشعرية السابقة عليها «كتاب الحصار» الصادر العام 1985، وقد تم لي كتابة مادة نقدية قصيرة بشأنها نشرت في جريدة «القادسية» العام 1988.

4 – لم تقتصر العينات الشعرية التي استمدت كيانها من قصيدتي «تجليات أبي العلاء» وحدها، انما وجدت هذه العينات أماكن أخرى لها في المجموعة ذاتها هي القصائد الأخيرة منها «احتفاء بأبي تمام» و«احتفاء بأبي نواس» و«احتفاء ببيروت 1982»، وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذا التاريخ 1982 لا يشير إلى زمن كتابة هذه القصيدة بل إلى وضع بيروت في هذا العام كما يوحي ويخبر سياق ومضمون القصيدة.

5- إن الحجة التي أقيمها على أدونيس وأعلنها أمام الملأ الثقافي محتكماً له بصحة حسمها لصالحي ومطالباً بتفسير منطقي لمعنى حدوثها هي: إن قصيدتي «تجليات أبي العلاء» موجودة ومبثوثة ومتفتحة بكامل تفاصيلها وبأكثر من طريقة ونوع واحد لوجودها في مجموعة أدونيس الشعرية «احتفاء بالأشياء الغامضة الواضحة»، فهي أولاً موجودة عند حدود ومستوى مفرداتها، هذا النوع من الوجود الذي اكتفي بالسؤال التالي، أسلوباً لإدانة مجموعة أدونيس الشعرية من خلاله، لماذا يمكن أن توجد قصيدة بجميع مفرداتها تقريباً في مجموعة شعرية تضم عدداً محدداً من قصائد أدونيس؟

وكيف يمكن تبريره؟ ما الذي يسوغ وجودها بهذا الكم؟

أما نوع الوجود الثاني فهو عند حدود ومستوى التأليف الشعري، تشكيل وبنية الصورة الشعرية حيث يستمد أدونيس من قصيدتي ومن خلال نظرة عميقة ثاقبة ومؤولة لها، نوعاً من المعاني المبتكرة التي يجمعها، والأصل الذي صدرت عنه شبه أصيل لا يسمح بتفسيره ورده إلى حالة من (توارد الخواطر) أو التناص أو حتى الإيحاء الذي يمكن أن يبعثه مضمون القصيدتين المشترك لسببين مهمين، أولهما كثرة وحدات التشابه وبكم مثير للريبة، أما الآخر فهو الإحالة الفقيرة، الحاجة والنقص الذي يبديه أحد النصين. نص أدونيس – إلى غنى النص الآخر.

أما أنواع الوجود الأخرى، فتمثله هي بصيغة استخدام الكلمات نفسها لتوليد معان جديدة أو العكس أحياناً، أعني تشكيل المعاني ذاتها من خلال استخدام مفردات مختلفة. إذن، فنحن هنا إزاء نوع غريب من التناص، فإذ يفترض كل تناص حقيقي غياباً للنص الآخر، ولا وعياً في التعامل مع مفرداته ثم حضوراً إيحائياً مغيباً تنتقل به القصيدة السابقة بطريقة سرية، أقول إذ يحدث كل ذلك في مفهوم التناص الحلال، فإن ثمة نوعاً محرماً من التناص يجري حدوثه هنا، متمثلاً فعل إنجازه بحضور النص الآخر

أمام الرؤية البصرية ثم وعي هذا النص، ومخاطبته، واستنطاقه، والحوار معه، والإجابة عن الأسئلة الشعرية الموجودة فيه. كما حدث – بغية خلق/ انتزاع قصيدة منه، هي النص نفسه وسواه في آن واحد وإذ لا يخفى المنحى التفكيكي لهذا النوع من القراءة الشعرية، فإن ملاحظة مهمة لا بد من إعلانها هنا: هي القول إن ما تتوخاه القراءة التفكيكية في فعلها هو إنتاج نصّ نقدي يتحدث عن نصّ القصيدة الآخر، أما هذا الذي يحدث هنا، فهو قراءة تفكيكية لقصيدة تتوخى إنتاج قصيدة منها، وهذا هو جوهر ومغزى الواقعة التي حدثت بين قصيدتي بوصفها مصدراً وقصيدة أدونيس بوصفها قراءة تفكيكية لهذا المصدر المنتج وعبر التفاصيل الآتية:

نص النفري	نص أدونيس
1. أقود قصائدي وشماً .	1. شعري نقش عليك (ص 75).
2. في كل جيل ينحني قمر.	2. القمر يترجل أمام الحانة (ص 84).
3. كسّر عكازك والطريق.	3. صداقة بين عكّازه والطريق (ص 91).
4. كسر الربيع جماله.	4. كسر الصيف جراره (ص 95).
5. هل رأى الأعمى؟ تابت يداه من التلمس؟ هل رأى؟	5. ماذا رأيت أيها الاعمى؟ ما أقل العالم وأقلني فيه، ماذا رأيت أيها الأعمى؟ (ص 96)
6. أطبق على متحجرات العين.	6. خذني يا حب وأطبق علي (ص 104)
7. عشرين عاماً باتجاه طفولة يسعى ليدرك جثة عبرت مجسات المدافن.	7. لا أزال أسير وراء الطفل الذي لا يزال يسير في أعضائي لأيامي الماضية قبر لكن لا جثة لها (28).
8. متشرفاً حبلاً تآكل عارفاً أني سأقفز ذات يوم حين يكتمل المكان وتردم الحدقات بالطرف المؤجل من مساء لم يحن.	8. الآن يقف على ذروة سلم من الضوء (5) أوشكت أن تحول الكلمات إلى أعال تجلس في أطرافها القصوى حيث لا يمكن السقوط أبداً وحيث تنتظر الغيب يتجه إليك ويحلّ بأهدابه الدروب (ص 71).
. 9. شمس أضاعت في ظلام عاقر أبهى أجنتها؟	9. لا تقدر الشمس نفسها أن تضيء هذا الجسد الذي ينزف ظلاماً (ص 102)

	10. هل تكتمل الدورة حقاً (ص 90) هل ينـتـهـي هــذا العالــم وأطراف الوقت تمتلئ بالإشارات (ص 71)
10. حين يكتمل المكان وتردم الحدقات بالطرف المؤجل من مساء لم يحن.	11. وجهاً يليق بتقاطيعها (ص 93) أقرأ وحولي تتجمع مفردات الطبيعة (ص 71)
11. وكان سرب أحضر يلقي ملامحه على جميع يليق بخطبتي. 12 . كسر عكازك والطريق واستهد بالفجوات عكازاً لهوتك العميقة.	12. إن الهاوية التي أشرف عليها لا تتسع لخطواتي (ص 29)، وكان كل ما تقدم يشعر كأنه يسقط في أشراك يود أن يبقى فيها (ص 91)، إن هناك أدراجاً أخرى تنتظر هبوطـــي (ص76).
	13. أنت لا تولد إلا من بين شفتيك، ضع جسدك في غير جسدك، إنذار رأسك لجسد آخر واصرخ من يريد أن يكون السابق ويتوج رأسي (ص 87).
13. هل تذكرون مليكة وضعت وأخفت عن مجرتها تفصيل الولادة كي تتوج آخراً؟	14. (يجيبني أدونيس عقب مقطعه مباشرة) من أين لك أن تعرف وأنت تسأل بكلامك لا بجسدك؟
14. (وحين أسأل عقب هذا المقطع مباشرة) هل تعرفون بأنها عصفته في ليل.	15. فاض الشجر وهجم غبار الطلع (ص 83)، شجرة نخيل تبدو وكأنها تنتظر لقاحاً جديداً (ص 72).
15. نطف تفوح على بلاط قبورهم شجراً.	16. كان الكلام ينبجس من أطرافي (74)، من غسق يهدر جميلاً في أحشائي (89) الجسد الذي ينزف ظلاماً (102).
16. أكاد أسد بالكف أحتدم الجنح في وسطي .. كان احتدام العين في الأعمى.	
17. نادى بنيه لبيعه. 18. هياكل مشغولة بالموت تتبع صورتها.	17. الرماد الأمير يجلس ويأخذ البيعة (ص103). 18. جماجم تسكر وتهذي (101).

19. قال اهتد بخطوطها.

19. هل لك يا أخي أن تكون دليلاً لي (ص86)، أية حكمة تقودك أيها الشيخ (95).

أخيراً يمكن القول بثقة بالغة إن ما تقدم من وحدات المقارنة هو عينات فقط توخيت من خلالها التدليل على صدق ما زعمت.

أما ذلك الجزء المتبقي من عناصر التشابه والذي لم يدرج هنا، فهو أكثر مما تم ذكره وإلى الحدّ الذي يسمح بدعوتي لمن يرغب بكتابة مقالة أخرى جديدة معززة بشهود جدد ونماذج مقارنة أخرى.

(ملحق)

بعد أن كف أدونيس عن (وهم نوبل)
متى سيكف عن غارات (الانتحال الحرام)؟

عبد الرحمن مجيد الربيعي

قال صاحبي :

– ألم يلفت نظرك أن التحقيقات التي نشرتها صحفنا العربية حول المرشحين لجائزة نوبل للآداب هذا العام جاءت مغايرة لما ينشر في السنوات السابقة؟

وسألته وأنا أعرف ما ذهب إليه؟

– ماذا تقصد بالضبط؟

– قال : أدونيس مثلاً، لم يكن يخلو موضوع من الإشارة إلى أنه مرشح قوي لهذه الجائزة ولكن هذه السنة اختفى اسمه تماماً.

– وهنا قلت له: الفضل يعود لي.

– فتساءل صاحبي : كيف؟

– ورددت عليه لأرضي فضوله: لأنني كتبت في العام الماضي موضوعاً كشفت فيه هذه اللعبة السمجة والمكرورة التي أراد بها السيد أدونيس استغفال مئات القرّاء العرب بإيهامهم أنه مرشح قوي لهذه الجائزة وكان يعتمد على محرر ثقافي في إحدى الوكالات الغربية ببيروت الذي لا همّ له إلا أن يعد موضوعاً قبيل إعلان اسم الفائز ويوزعه على كافة الصحف العربية وفيه يؤكد ترشيح »معلمه« لهذه الجائزة. هذا كل شيء ولكن الغريب أنني كنت أقرأ موضوعات هنا في تونس كتابها هم ضحية هذه الكذبة إذ هم أسفوا فيها لأن أدونيس وهو (المرشح القوي!!) لم ينلها .. إلى آخر هذا الكلام.

وكان صاحبي قد تذكّر شيئاً من هذا وسط ركام مشاغله وقراءاته وتمتم:

– نعم اتذكر مثل هذه المقالات .

– ثم انطفأت هذا العام مرة واحدة فلا أدونيس مرشحاً ولا أحد أسف عليه وعلى جائزة نوبل التي لم ينلها والغريب انه لا أحد تذكره بعد زوال الكذبة .

ثم أضفت بعد أن طلبت كأس شاي أخضر مسائياً بالنعناع كما أحبه:

– لقد كتبت موضوعاً في العام الماضي نشرته في تونس في زاويتي (وقفة متأنية) بالصحافة ثم نشرته أيضاً في الملحق الثقافي لجريدة (العلم) المغربية الواسعة الانتشار وقلت مما قلته فيه: »فليخرس أدونيس

غلامه البيروتي ويوقف هذه الكذبة» .

وقد علمت أن هناك من أرسل له الموضوع سواء من تونس أو المغرب وقد انتبه إلى أن اللعبة قد انكشفت لذا أوعز لذلك (المريد) بأن يسكت فسكت ولم يعد أدونيس مسكيناً ظلمته لجنة الجائزة وكان قاب قوسين منها. ترى هل بدأ الرجل وبعد هذا العمر «يتعلق» ويفرق ما بين الإبداع الجاد والهالات التي يرسمها مجموعة ضالة من مريدين صبيان؟

يبدو أن الأمر هكذا . وأقول إن شاء الله .

*

لكن هناك أمر تمنيت لو أنه تاب عنه لتكون قصائده (بريئة) لا أحد يدعي أنه انتحلها منه، وهي حالة لم تتأكد إلا به ومعه، إذ إنني لم أقرأ أن البياتي أو السياب أو عبد الصبور قد انتحلوا، ونزار قباني فعلها مرة مع جاك بريفير وما زالت المسألة مثارة ضده منذ نصف قرن تقريباً.

وفي الفترة الأخيرة برزت انتحالات الشاعر أدونيس عبر ما أثاره شاعر شاب موهوب ومميز من العراق هو عادل عبد الله في جريدة (العرب) العالمية الصادرة بتاريخ 1997/8/8 بشأن، قصيدته (تجليات أبي العلاء) التي كتبها عام 1983 وأرسلها لمجلة الآداب اللبنانية ولكنه لم يرها منشورة لذا قام بنشرها في مجلة (الأقلام) العراقية العام 1985 ويرى أن قصيدة أدونيس (احتفاء بالمعري) «هي القصيدة التي تحمل المساحة الكبرى من وزر فعل الانتحال»، ويواصل الشاعر عادل عبد الله عرض ما جرى له على يد أدونيس فيقول: «لم تقتصر العينات الشعرية التي استمدت كيانها من قصيدتي (تجليات أبي العلاء) على الظهور في قصيدة أدونيس (احتفاء بالمعري) وحدها، انما وجدت هذه العينات أماكن أخرى لها في المجموعة ذاتها هي القصائد الأخيرة ..الخ».

ويرى عادل عبد الله أن ما فعله أدونيس كان «قراءة تفكيكية لقصيدة تتوخى إنتاج قصيدة منها». كما يرى أن ما حدث له هو «نوع من التناص الحرام».

وفي مقالته يورد نصه ونص أدونيس، والعلاقة بينهما واضحة لمن يريد المقارنة.

*

كان صديقي وبعد أن استمع إلى كل هذا قد ذهب بعيداً في الخليقة كأنه تذكر شيئاً فقال:

– روى لي صديقي الشاعر التونسي (أبو رامي) أن آخر كتاب لأدونيس اسمه (الكتاب) هكذا!! ولكن أتدري من أين له هذا الاسم؟

– فقلت له: لا تقل لي أرجوك إنه قد انتحله، أيضاً. فقاطعني بقوله:

– وإن هذا الاسم هو للشاعر الفرنسي مالارميه الذي كان يردد ويكتب دائماً بأنه يطمح إلى كتابة مؤلف

يسميه (الكتاب) *Le Livre* – هكذا نطقها بالفرنسية – وكل من عرفوه قالوا إنه سيضع خلاصة تجربته الشعرية في هذا الكتاب ثم مات ولم يحقق حلمه.
وابتلع ريقه وهو يستأنف القول:
– لقد تساءل صديقي أبو رامي ببراءة: هل يتصور أدونيس أن له حجم مالارميه فيتجرأ ويسمي كتابه (الكتاب)؟

*

طلبنا كأسين جديدين من الشاي الأخضر المسائي المنعنع ثم تركنا نظراتنا تتأمل أفواج الخارجين من أعمالهم من وراء زجاج مقهى (باريس) التونسي.

(تونس – 1997/10/14)

---

* شاعر وناقد عراقي يقيم في بغداد .